٢ ـ أغنية الرياح الأربع

لشاعر الحب والجمال علي محمود طه

للأستاذ دريني خشبة

تنطلق الزوجة الحسناء داخل الحانة بَرِمة ، ثم يقبل البحارة ، فيأخذون فى هرج ومرج ، تزيدها النشوة ضجة واصطخاباً ، فإذا سألوا من صاحب الحانة وقدم لهم أرسطفان نفسه ، عبثوا به وضحكوا منه :

أنظر إلى وجهك في المرآة وصف لنا عجيبة الحياة
من أى غاب يا وحيد القرن وما اسمك الصحيح ؟ لا تكنى

فيقول لهم : أرسطفان ... فيقول أحدهم

... عَـلَمٌ مغلوط صحتـه وشكله المضبوط
تنبيٌ عنه هـذه الخيوط أرسطفان أنت أخطبوط ! !

وهكذا يستغرق الجميع فى ضحك متصل ، تزيده القيان الحسان اللائى صحبن البحارة بهجة وإيناساً ومرحاً . ثم تأخذ إحداهن فى رقصة بارعة يدخل بعدها بطل الدرامة الرهيب « أزمردا » فيأخذ مكانه فى ناحية ، ويسود الحانة جو من الوجوم لا يفيقون منه إلا على إنشاد باتوزيس الذى يتغنى لهم قصة تلك الأشورية التى تعشقها فتى ملاح ، ووقع هو الآخر من نفسها فدعته إلى سفينتها وانطلقا يذرعان البحار عامين سعيدين حتى فرقت بينهما يد الأقدار حين نزل الفتى إلى الشاطئ للصيد فأتى قرصان فصاد حبيبته وذهب بها إلى حيث لا يدرى العاشق المسكين ... وروى أن هذه الحسناء قد تزوجت من بعض الآلهة فأنجبت منه (ربات الرياح الأربع)

فإن سمعتم فى صدى الأمواج أو لحن شاديكم
أغنية تهفو على الأثباج حيرى تغاديكم
فهى لهـا ، وهى تناديكم

فإذا سأله البحارة عن هذا القرصان الفاجر أين مقره ، قال باتوزيس إنه يجلس بينهم كواحد منهم .. معرّضاً بأزمردا ... أزمردا القرصان الهائل الذى دوّخ أطراف البحر ، وزلزلت سطواته جزائر إيجة وشطئان مصر ، وأحرز من خطف الحسان ثروة طائلة وبأساً شديداً ... فيظن البحارة أن باتوزيس يمزح ، ثم ينصرفون من الحانة إلى ملذاتهم ومعهم حظاياهم بعد أن ينقدوا الخمار ثمن شرابهم ... ويقبل أرسطفان على الشاعر المصرى مسروراً باشاً لأنه كان روح هذه الليلة بشعره وغنائه وموسيقاه ، ويقدم إليه كأساً راوية فيأمر له (أزمردا) بأخرى ، ثم يأخذان فى حديث طويل نعرف منه أنهما كانا صديقين منذ زمن طويل يعملان فى البحر ثم افترقا ، وأن أزمردا يعمل الآن فى القرصنة والاتجار فى سوق الرقيق الأبيض ، ثم يعاتبه لتعريضه به بين أولئك السكارى ، وما غمزه به فى قصته التى رواها لهم ... ويحدثه باتوزيس حديث (ربات الرياح الأربع) الذى سمعه فى آخر زيارة له فى طيبة المصرية :

فتيات أربع يظهرن فى كل عام صوراً مختلفات
رائمات يتخطرن على هذه الأمواج مثل النسمات
فوق شط رمله من ذهب لؤلؤى الماء درّى الحصاة
من يحزهن يحز ملك الثرى ومقاليد البحار الطاغيات

فإذا جادله أزمردا فى أمرهن أكد له باتوزيس حقيقتهن ، فيعرض عليه أزمردا أن يعيش معه فى سفينته

تعال فى سفينتى وكن أخى وساعدى
وذقْ مباهج الحيـــاة عذبة الموارد

ثم تسمع ضجة عند باب الحانة ، وتدخل جماعة من الشذاذ وعلى رأسهم زعيمهم أزيرو ومعه حظيتان من حظاياه لا تلبثان أن تخرجهما حميا الخمر عن رشدهما ، فتشاجر إحداهما الأخرى فيصفع أزيرو إحداهما ويطرحها أرضاً فينتصر لها أزمردا ويرفعها بيديه إلى كرسيها فتثور ثائرة أزيرو ويمتشق حسامه ليغمده فى صدر أزمردا ... فينتفض أزمردا كالأسد ، ويكشف عن نفسه ويضرب بسيفه سيف أزيرو فيكسره . . ويذهل الجميع حين يعرفون أنهم فى حضرة القرصان الأكبر ، وترتفع صيحة من جوانب الحانة يرددها الجميع مشدوهين :

أز ... مر ... دا

وينزل ستار الفصل الأول !

ويتألف الفصل الثانى من منظرين ... من أروع ما وصل إليه خيال شاعر — لا فى مصر وحدها ، بل فى الدنيا قاطبة ! وهكذا أقولها غير عابىء بجميع الابتسامات التى أراها الآن ترقص على شفاه الكثيرين من قرائى ، وعلى أرنبات أنوفهم !! ومن الخطر الأدبى تلخيص هذا الفصل . . . فهو وَحْدَة فنية كاملة يجب ألا تشوّه بالتلخيص . وحسبك أن تعلم أن سفينة أزمردا ترسى فى ميناء رفح المصرية قُبيل الشروق ، وأن أزمردا ينزل إلى الشاطىء وحده فيلقى ربات الرياح الأربع يتواثبن راقصات على الرمال الناعمة ، فيغريهن بزيارة سفينته ويُمَنّيهن الأمانى ، فإذا طلبن إليه برهانه أبرز لإحداهن وهى حروازا ، ربة ريح الشرق ، ياقوتة حمراء تبهر العين وتذهب باللب ... ثم ينتصر بيان أزمردا ، فيرضين بزيارة سفينته آخر الأمر ...

ونرى فى الفصل الثالث جانباً من سفينة أزمردا ، فهنا مخدع الشاعر ياتوزيس ، حيث يوقظه العبد ماتوكا ويقدم إليه طعام الإفطار ، ويأخذ منه الشاعر فى حديث عن حظوظ بنى الإنسان ، ندرك منه أن ماتوكا لا يبغى بحياة الرق بدلاً

سفينتى هى الحياة والغد المؤمّل
فدطاب لى فى ظلها العيش وطاب المنزل
ومن كساء سيدى الربان هذا المخمل
ومن شرابه أعل هانئاً وأعمل
أى حياة لىَ من هذى الحياة أجمل ؟

وينصرف العبد ، ويدخل أزمردا إلى بهو مجاور وفى صحبته ربات الرياح الأربع فما يلبثن أن يوجسن خيفة ويسترن فتطمئنهم حروازا وتذكرهن أنهن آلهة ... ويمضى أزمردا ليخبر ياتوزيس الذى لا يصدق إلا بعد لأى .... فإذا سأله عم يصنع بهن وهن آلهة ، قال :

أسخرهن قوى ينتظمن شراعىَ ما قادنى مطمعُ
وأغزو بهن منيع الثغور وأجنى الثراء وأستمتع

فيسأله ياتوزيس : أتطمع فى ملكوت السماء ؟ فيقول أزمردا ... أو يقول على محمود طه ... بيته الخالد الذى هو أثمن من ديوان :

خُلقنا غرائز منهومةً فليست تروَّى ولا تشبع !!

ويوشك ياتوزيس أن يجن جنونه لهذا القرصان الجرىء الغامر الذى لا يبالى أن يخطف حتى الآلهة . فيثور على أزمردا ويثور أزمردا به ، فينطلق ياتوزيس ، ويسمع أزمردا أصوات ربات الرياح الأربع فيقصد إليهن ليسرى عنهن ، ثم يدخل ماتوكا العبد ليدعو سيده لتسكين ثائرة إحدى المخطوفات فيذهب معه ، ويبرز ياتوزيس ، فإذا سألته من هو قال :

لا وقت للسؤال من أنت هنا ومن أنا
أنتن فى سفينة القرصان ، لا وقت لنا

ويخبرهن خبر أزمردا فيطمئنه ، ويدخل أزمردا متقلداً سيفه فيرى ياتوزيس ويدرك أنه قد فضح سره فيهم بقتله لولا أن تحول الربات بينهما ويأخذن فى السخرية بأزمردا ، فيهم بقتل ياتوزيس ثانية فتمد حروازا ذراعها السحرية فيجمد الدم فى عروق أزمردا ويسقط السيف من يده ، ثم يرجف بدنه رجفاً شديداً وتغرورق عيناه بالدموع التى تخنق عبراتها صوته ويطلب الصفح على أن يكون خير عباد الله براً وصلاحاً واستقامة . ثم ترق الربات له ويسمعن ضجة ، وإذا الحسناء التى كانت ثائرة بالداخل مقبلة ، فتلتفت إليها حروازا وتبطل سحر ذراعها فتدب الحياة فى أزمردا الذى يتناول سيفه مرة ثانية ويهم بالغدرة مهدداً الربات وكل الحاضرين بالقتل ، فتمد حروازا ذراعها ثانية فيجمد الدم فى عروق حروازا من جديد ، ويسقط السيف من يده ، ثم ترفع الربات أيديهن ويتفحن ... فإذا ريح صرصر عاتية تحمل أزمردا فتقذف به فى أعماق اليم

وبعد ... فهذا سحر وشعر وجمال وفن !

(يتبع)

دريني خشبة

حكم فى الجنحة العسكرية رقم ٥٠١ سنة ١٩٤٣ مركز ضد زينب على سلام بالحبس ثلاثة شهور وغرامة ١٠٠ جنيه مع إيقاف التنفيذ لامتناعها عن بيع الشاى بالتسعيرة .